تاريخ استقبال المقال: 2015/04/11 تاريخ قبول نشر المقال: 2015/10/23 تاريخ نشر المقال:2015/12/01

تجلّيات اضطرابات مرحلة المراهقة

أ. عبد القادر بهَتان جامعة 8ماي 1945 قالمة– الجزائر
أ.د نورالدين جبال .جامعة الحاج لخضر باتنة– الجزائر

ملّخص:

يهدف موضوع البحث إلى الكشف عن مواضيع الاضطرابات الأكثر بروزا في مرحلة المراهقة، باعتبارها مرحلة نمو حسّاسة وحرجة في حياة الفرد. ولم يتطرّق الباحثون، باختلاف انتماءاتهم العلمية، فقط إلى دراسة نقاط الاختلاف فيها (فتراتها الزمنية...) بل تعدّوا إلى نقاط الاتفاق في تعريفها عبر مختلف الأزمان والثقافات والشعوب. لقد اعتبروها المرحلة الأكثر تميّزا في حياة المراهق النفسو–مرضية. كذلك، ليس لأنّها معقدة التركيب فقط، بل قد يرجع الأمر إلى نوعية مواضيعها المطروقة وفي أيّ سياق تمّ ذلك. وبالتالي، إعطاء الاهتمام لهذه المعالم يهدينا إلى أهم اضطراباتها بالرغم من تنوّعها، بدءا من ماهيتها وأزماتها، إلى اضطرابات التنشئة، الهويّة...

كلمات مفتاحية : إشكالية المراهقة، اضطرابات المراهقة، أزمة المراهقة

ABSTRACT

The subject of research aims at reveal the most prominent topics' disorders during adolescence, as a sensitive and critical stage in the growth in the individual's life. The researchers did not only mention, according to their different scientific tendencies, the study of the divergent points of adolescence (periods of time...) to an extent that they also focused on the convergent points in its definition across different times, cultures and people. It remains this most distinctive stage in a teenager's psychological life. Not because it is only complex, but also it can be attributed to different types of approached subjects and in which context it has been unrolled. Indeed, giving importance to these marks, we orientate its different troubles in spite of their plurality, beginning by its definitions and crisis, up to troubles of genesis, identity…

Mots clés : problematic of adolescence, disorders of adolescence, crisis of adolescence

مقدّمة

اختلفت المساهمات والدّراسات العلمية في مختلف المقاربات حول اضطرابات المراهقة. فما يعّد اضطرابا في بيئة، قد لا يعّد كذلك في بيئة أخرى. فضلا عن نظرة الأبعاد السيكولوجية حيال هذه الفترة الحرجة واضطراباتها. من جهة، البُعد البيولوجي للمراهقة يرى امتداد حدودها بدءًا من التحوّلات الجسمية حتّى القدرة على الإنجاب، والبعد القانوني يحدّدها بدءًا من الفترة العمرية التي تسمح للوالدين ترك الطفل مثلا وحيدا في البيت دون أن تسقط عليهما عقوبة الإهمال العائلي وتنتهي مع سّن الانتخاب، ويبدأ البعد الاجتماعي مع بداية سلوكيات المشاركة في أدوار اجتماعية مستقّلة عن العائلة وينتهي مع بداية التحكم في الذات وفي توظيف المسؤولية مع الآخرين.

أمّا البعد النفسي تتزامن بدايته عموما مع تأكيد الذات الشخصية وتأكيد الاختيارات، وتنتهي مع بداية القدرة على تحديد هُوّية الذات والاستقلالية واتخاذ القرار. وبالنظر إلى بعض المقاربات النفسية، نجد مثلا البعدَ المعرفي يصفها من بداية العقلنة المجرّدة وبداية النمو الخُلقي حتّى بداية التحكم في التفكير البنائي. والبعد الدينامي يصفها من بداية النمو الجنسي حتّى النضج...

يبدو أنّ المفارقة، فيما يخّص طرح مفهوم المراهقة، واضحة المعالم بين مختلف الأبعاد والمقاربات السالفة الذّكر، ومن ثمّ اختلافات محتملة الطرح أيضا في تفسير اضطراباتها. وهي النقطة التي نحاول التطرّق إليها في موضوع هذا البحث من خلال الإلمام بمجمل العناصر الظاهرية والباطنية للفرد المراهق، مرورا من ماهية المراهقة وأزماتها واضطرابات التنشئة خلالها، وهوية المراهق الأكثر تمييزا، ناهيك عن الأنماط المتضاربة حول دراسة هذه المرحلة الحرجة.

أوّلا : تعريف المراهقة

تعدّدت التعاريف اللغوية حول المراهقة ومعانيها، باختلاف الألسن والثقافات، ولعلّ المعنى الأبرز ما تداولته المراجع اللغوية والنفسية.

1. **لغة** : مصطلح المراهقة من أصل لاتيني *Ad-Olescere*، من فعل " يكبر نحو" و"يتصاعد إلى" بمعنى ينمو نحو(... الرشد). "فرانسواز دولتو" (د.ت) F. Dolto (ذكرت من قبل "سالتانسبرغر" Seltensperger وآخرون)، تعتبرها فترة من النمو والتحوّل من مرحلة الطفولة. أي الانتقال من "عدم النضج" إلى الرشد. وهي بمثابة فترة الإعداد للمستقبل.[1]

2. **اصطلاحا** : تعدّدت كذلك التعاريف الاصطلاحية حول المراهقة بتعدّد مجالات البحث وميادينه

إنْ نظرنا إلى تطوّر الإنسان عبر التاريخ وعبر مختلف الثقافات؛ المراهقة مرحلة العبور من الطفولة إلى الرّشد. فعليا، يمكن أن يحدث هذا العبور بصفة مستمرة أو متقطّعة. إنّها مرحلة عمرية من حياة الإنسان تمتد من نهاية الطفولة إلى بداية الرشد.[2]

من الناحية الاجتماعية تعتبر المراهقة إمّا مرحلة عبور، والتي تسمح بالاندماج في الحياة الاجتماعية. أو كمجموعة اجتماعية متميّزة بخصائصها الإجتماعوثقافية وبصعوباتها المختلفة بناءا على الجنس والزمن.[3]

وقد استخدم الباحثون أوصافا متعدّدة للتعبير عنها؛ فقد عرّفت "دولتو" المراهق من خلال الخطر الذي يحيط به. تطرّقت إلى عقدة سرطان البحر (*lobster*)، حيث شبّهت فترة المراهقة بفترة تغيير سرطان البحر لصدفته.* أي أنّ فترة المراهقة بمثابة سّن التعرّض للتهديدات بأنواعها، والتي لا يمكن تجنّبها لاسيما أنّها مرحلة بناء هوية الذات والتمثّلات الجسمية،** والتي تتحدّد خلالها كل التحوّلات النزوية الجديدة.

إذا قلنا بأنّ المراهقة هي زمن التغيير. من جهة، الكل يتغيّر داخل الذات: الجسم، الأفكار والرّغبات... ومن جهة أخرى يحدث هذا التغيير حول الذات ومحيطها. بمعنى صورة الذات في أعين الآخرين وما ينتظره وما يطلبه المحيط. تراها "دولتو" مرحلة أساسية في تشكيل هوية الفرد حيث تسترجع التجارب والاستثمارات الطفولية لإعادة بعثها وإسقاطها في الحياة الاجتماعية العاطفية وتعقيداتها.[4]

المراهقة تفرض إذن سياق الإدماج لكل التعديلات الداخلية والخارجية للبلوغ من خلال استثمار تمثّلات الذات. وفي هذا السيّاق يعرّفها "تاب" (1988) Tap على أنّها: "**[...] جدلية دينامية**" تتكوّن من سياقين إثنين :

سياق الاستيعاب : نجد فيه التكيّف مع الآخرين.

سياق التمييز: ونجد فيه التمييز عن الآخرين..." (Kunnen Et Bosma, 2006).

ومن وجهة نظر أخرى، تعتبر المراهقة إمّا ظاهرة أزمة، أو سياق ثاني للانفصال والتوّحد (Marcelli & Braconnier, 1995). أو تعتبر في حدّ ذاتها حدثا صادما، كون الصدمة في هذه المرحلة لا تأت من الخارج وإنّما تحدث من الداخل (صورة الجسم). وبالتالي تكون حماية الجهاز النفسي ضعيفة سواء في داخل (*Dedans*) وخارج (*Dehors*) البناء النفسي على حدّ سواء. هذا الانهيار، يُفرَض بسبب النمو المفاجئ والقوي في نهاية الطفولة. لأنّها مرحلة، كما يعبّر عنها أيضا "جوتون" Gutton (1997)، قد أحدثت له انقطاعا عن الروابط الأوديبية العاطفية فأصبح يعيش فقدانا فجائيا للموضوع وللحب النرجسي.

أمّا وصف "لوفر" Laufer لهذه المرحلة في كتابه : "*Adolescence And Developmental Breakdown*"، حيث ينعتها بالانكسار، والهجر اللاشعوري للجسم الجنسي، والشعور بالسلبية تجاه متطلّبات جسمه المنتظرة وغير المحّققة. بل يصفها من خلال فشل سياق الاندماج لتمثّل الذات.

فبالنسبة لتوظيف المراهق الدّفاعي، يبقى متعلّقا بالقلق المرتبط بجسمه في إطار جنسي ونرجسي. أي في حالة الفشل يصبح نمو الجسم معرّضا لهزّات نمو ولانكسارات، وهي مرحلة تميّز الفشل الدّفاعي. ويصبح الحلّ نكوصيا في مجابهة القلق. هذا الأخير، قد يبدو بارزا لدى المراهق من خلال التركيز على جزء من أجزاء الجسم المتغيّرة، أوفي عدم تقبّله له. أو بالأحرى يستمر في معايشة إنكار واقعه.[5]

وتعّد كذلك مرحلة المراهقة فترة حداد وخوف. تتميّز بسياق الانفصال عن المواضيع الوحيدة للحب، والمتمثّلة في الصور الوالدية. تتميّز بالنظر المستمر في المرآة وبحساسية تجاه الآخرين. يميّزها كذلك الاستثمار النرجسي في إقامة علاقات مع مواضيع جديدة، وحميمية واجتماعية، هذا الاستثمار النرجسي يكون قوّيا وهشّا في آن واحد. إنّها مرحلة "الثوران النرجسي" أو كما يسمّيها "هواري مايدي".[6] ربّما بسبب الصدمات النفسية، لأنّها المرحلة الأكثر ملاءمة لإعادة إحيائها.[7] وقد ينتج عن سيرورة المراهقة

* فترة زوال الصَدَفة وانتظار أخرى تعرّض حيوان البحر إلى عواقب خطيرة.

** الجسمية بدل الجسدية، كون كلمة جسد تتعلّق بالميّت، أمّا الجسم عندما نتكلّم عن الحي.

الشعور بانعدام الأمن والقابلية للجرح والشك والعنف. أو كما أشار إليه "وينيكوت" Winnicott : " **النمو بطبعه فعل عنفي**"

مع تجليّات التحوّلات هذه، تعتبر المراهقة إمّا ظاهرة أزمة، وإمّا سياقا ثان ممثّلا في عملية انفصال–إنفراد.[8]

ثانيا : مميّزات المراهقة

تعتبر المراهقة مرحلة البحث عن الذات والشعور بالذاتية. وتتميز شخصية المراهق بالرؤية (الرومنطقية) الحالمة للحياة، أو كما يسميها "يونج" Jung بعملية "**الميلاد النفسي**".[9] أي مرحلة ميلاد ونمو تتميّز بعّدة نقاط، أهّمها:

1. تغيّرات نفسية وبيولوجية تؤدي إلى تغيّر المراهق مع جسمه.
2. العلاقة مع الأم، تسمح بظهور البعد العلائقي كبعد تكويني للشخص.

3. نضج الأعضاء الجنسية، يؤدي إلى تطوير علاقة الشخص مع الآخر. ومن ثمّ الشعور بالأمان وبالتوافق والانسجام الداخلي.

تؤدي جملة هذه النقاط التنظيمية إلى فشل النمو، أو ما يسمّى بـ "أزمة المراهقة". بحيث تترجم هذه الأزمة من خلال فقدان جذري في العلاقات العاطفية وفي التشبّعات الليبيدية النرجسية، والتي بإمكانها تشويه تقدير الذات، وقد يظهر صراع لا شعوري يكون مستقّلا عن الليبيدو الموضوع وتابعا لعلاقات المواضيع البدائية. ويكمن حلّ هذا الصراع من خلال إيجاد الوفاق بين العلاقة غير الجنسية مع الأم والعلاقة الليبيدية العامّة. إلاّ أنّه ليس من السهل التحكّم في هذا السلوك الانتقالي عبر مشاعر الخجل والضيق (من الصعوبة بمكان، في بداية المراهقة، معرفة طبيعة الفعل الجنسي. هل هو مبكّر أم لا). لأنّ انحلال الليبيديان (النرجسي والموضوعي) حتّى مرحلة الكمون يعيد تنشيط الصراع الأوديبي ويقحم رفض الانطباعات الوالدية. وبالتالي يؤدي إلى صراعات التقمص، التي تتطلب البحث عن تقمّصات جديدة خارج انحلال الليبيديان معا حتّى مرحلة الكمون وخارج العائلة.

الانطباعات الوالدية عبارة عن صور، توجد على أساس التبادل العلائقي. وغالبا ليس للوالدين روابط حقيقية مع هذه الانطباعات. إلاّ أنّه يوجد لدى الطفل ميولا لتصليح الإنطباعات المشوّهة بواسطة الهوامات والتخيّلات بعد تصليح النقص.

في هذا الإطار يكون فشل المراهقة حسب "جوتون" لأنّها مرحلة : " **تجعل المراهق يواجه تحوّلات جسمية بسبب النضج**". بالنسبة إليه، يكون مفهوم وأصل هذا الأخير متعلّقين بالنفس و بالجسم. هذا السياق يفرض ضغط الواقع البيولوجي للنضج على الماهيات النفسية. فالتنظيم النضجي هذا يعيد إحياء الصراع الأوديبي، وربّما عدم إمكانية تجاوزه بسلام. بحيث يزيد نشاط الأنا الأعلى من خلال البحث عن اعتمادات جديدة. لأنّ توافقا متدهور يحدث بين الأنا والأنا أعلى، فيجد المراهق نفسه في إشكالية العلاقة ما بين الجسم والذات الشخصية(/). فضلا عن تزعزع صورة الذات (في وقت قصير وسريع) بسبب هذا النضج الذي جعل المراهق يجد صعوبة في استدخال جسمه في

مختلف المستويات (على مستوى كل من التمثّلات الرمزية للجسم، والشعور بالهوية، والنرجسية)[10].

إذا كانت المراهقة بالنسبة لِ "جوتون" تتموقع في دائرة الفشل، فإنّها كذلك بالنسبة لِ "لوفر" : "**تحمل في طيّاتها فشل النمو**". إنّه يعيد ما التمسه فرويد عن النضج، لأنّه (النضج) يؤدي إلى التحوّلات والتي تسمح بدورها مرور الحياة الجنسية الطفلية إلى حالتها النهائية والعادية.

فبالنسبة لِ "فرويد"؛ كل اضطراب في الحياة الجنسية ناتج عن تثبيط خلال مرحلة النمو. ويضيف بأنّ البلوغ يكمن في النضج الجسمي والجنسي. كذلك في هذه المرحلة يدرج سياق الرغبات الجنسية والتقمّصات الأوديبية في هوية جنسية جديدة ونهائية.[11]
وحاول مختلف الباحثون تحديد الصعوبات المختلفة التي يخضع لها المراهق، وأبدوا وفاقا فيما يخص إمكانية التغلّب عليها، ويتوقف هذا على عّدة عوامل :
يلّح «إركسون» Erikson على الدور الأساسي لمرحلة الطفولة والثقافة التي يعيش فيها الفرد، كونهما يساعدان على السير الحسن لحّل الأزمة. أي لا بد من وجود محيط مدّعم جّدا.[12]
بالنسبة لِ "كاستنبرغ" Kestenberg، القدرة على التخلي عن الهوامات واستبدالها بمشاريع مستقبلية، هي عوامل محفّزة من شأنها تسهّل تعّدي الأزمة أيضا.
أمّا "جامي" Jeammet، يصف أزمة المراهقة بعمل يحدث دون صخب، بل إنّه عمل نوعي بالنسبة لمراهق ينمو في وسط مدعّم ممّا يسمح بنمو عادي، وغياب هذا الوسط يسّبب مراهقة خطيرة للفرد.
ما يلفت النّظر، أنّ نقص الدّعم بالنسبة لِ "إركسون"، وغياب مواضيع تقمّصية جديدة بالنسبة لِ "كاستنبرغ"، وغياب الدّعم الكافي بالنسبة لِ "جوتون"، والمعاش السلبي بالنسبة لِ "لوفر"، كلّها عوامل من شأنها تشكّل تهديدا حقيقيا للهوية وتؤدي إلى استخدام ميكانيزمات دفاعية نوعية.[13] من قبيل الإنكار والتثبيت..

ثالثا : أنماط متضاربة حول المراهقة

يوجد العديد من السلوكيات والأفكار النمطية المتضاربة في المجتمعات العامّة تجلّت لدى بعض الممارسين والباحثين في ميدان الصّحة النفسية والعقلية وفي ميدان التربية. وأهم هذه الأنماط الأكثر شيوعاً حول المراهقة ما يلي[14] :

1. المراهقة مرحلة اضطراب : لعّل أوّل مؤلَّف حول المراهقة كان لِ هول (1904) Stanley Hall، الذي يسمي تشكيل مرحلة المراهقة بـ "فترة الصخب الانفعالي"، حيث تتميّز بالضغط والصراعات وعدم الاستقرار وبقانون المتناقضات. يتقاسم هذا التعريف حول المراهقة أشهر الباحثين في أنحاء المعمورة (Stranger ألمانيا، Debessفرنسا). بحيث تُحدث الصراعات والاضطرابات تغييرا في التنظيمات الداخلية للأنا وفي علاقات الفرد مع المحيط، هذه الوضعية ينتج عنها القلق، التأنيب ومشاعر العداء والمعارضة.

و ترى "أنّا فرويد" إمكانية المراهق القيام بعملية الحِداد للعلاقات الطفلية والمرور إلى النضج العاطفي والجنسي. والمراهق النموذج هو إشكالية موّجهة بواسطة التفكير غير العقلاني وعدم التحكم في الاندفاعات. لأنّه فريسة الانفعالات المضطربة، والصّراعات مع القانون والسلطة، والأفكار الخاطئة وغير المعيارية (Rutter & al, 1976 ; Petterson, 1985).
من الناحية الإكلينيكية؛ المراهقة مرحلة الاضطرابات في النمو، يتّم إعادة تشكيلها بإقامة هوية توافق بين

مفاهيم المراهقة المضطربة والمراهقة العادية. تتميّز بانطواء ونكوص الأنا (Freud, 1969)، أو بتظاهرات اكتئابية مرتبطة بالحداد عن العلاقات الوالدية في المرحلة السابقة (Green, 1977). تعتبر هذه العلامات الإكلينيكية مرضية قابلة للتطور، لكن في الوقت ذاته غياب هذه الاضطرابات الإكلينيكية قد يعبّر عن عدم نضج الأنا (Freud, 1969).

بالمقابل، أوّل دراسة غير إكلينيكية على عيّنة مراهقين كانت من طرف "دوفين" و "أندرسون" Douvain & Anderson (1966) حول علاقات المراهقين مع الآباء، الصداقات، والحب الأوّل، وتشكيل الهوية. لم يتّم تسجيل انطواء الأنا أو أزمة خطيرة للهوية. بل وجد تطلّع إلى المستقبل المرّكز على الجوانب المادية ورموزها. النتيجة أنّ الصور الوالدية تؤثّر على تشكيل الهوية، والأسلوب (الديمقراطي) في التربية يشجّع المراهقين للمشاركة في اتخاذ القرار، ويحفّز على نضج الهوية، عكس الأسلوب (السلطوي) الذي يشجّع على تكوين هوية منشطرة والأسلوب التربوي (التسامحي) الذي يشجّع على تكوين الهوية المبهمة وغير الواضحة. أضف إلى ذلك نقص الإتصال بين الأم والمراهق ووجود صراعات مع الأتراب يخلق هوية سلبية.

وفيما يخصّ البلوغ (تماثل جنسي والدي)، يجد المراهق نفسه بحاجة إلى البعد عن الآباء كوقاية من الوقوع في الإشكالية الأوديبية.

إلاّ أنّه يوجد من الدّراسات، كدراسة "دانيال و يوديس" Daniel & Judith (1975) على فئة المراهقين البالغين (12–19 سنة) والتي أظهرت نتائج معاكسة. أي أنّ أغلب المراهقين يتّبعون نموا منسجما دون "صخب انفعالي".

أو دراسة "كليس" Claes (1991) على 500 مراهق (11–18 سنة) يتمتعون بصورة إيجابية عن مزاج الذات، ومراقبة الإنفعالات، والتحكم في الأحداث، والقدرة على مواجهة متطلّبات الحياة الحالية والمستقبلية.

وأبرزت دراسة "كلوتيي ولوجو" Cloutier & Legault (1991) على عيّنة من 5000 مراهق، صورة إيجابية وصّحة نفسواجتماعية جيّدة.

كلّها نتائج تتعارض مع سابقاتها و التي تؤكّد أنّ المراهقة هي ضحيّة الاضطرابات النفسية.

2. النضج يسبّب الاضطرابات في النمو : النضج يقدّر غالبا فيزيولوجيا. مثلا بالنسبة للإناث؛ تعاش العادة الشهرية بالدرجة الأولى بصفة سلبية. كما يربط "شتاينبرغ" Steinberg (1990) النضج بارتفاع الصراعات بين الآباء والمراهقين ثمّ استقرارها. وخلص إلى أنّ هذه الصّراعات تساهم في تنظيم الحياة العائلية.

وقد يتّم معرفة نضج المراهق، ليس من خلال الجانب الفيزيولوجي. فبالنسبة لفرويد يتّم إنطلاقا من تمثّلاته وتقمصّاته. وتكون في الغالب متمثّلة في الطموح إلى سّن الرشد(أو ربّما ليس الرشد في حدّ ذاته...).

3. سيطرة الصراعات على العلاقات الوالدية : كان يُنظر إلى العائلة وجماعة الرّفاق على أنّهما مجموعتان غير متصلتين وقوتين متعارضتين، أمّا البحوث الحديثة ترى بأنّهما عالَمان تربطهما علامات متكاملة ومستمرّة (Cooper، 1994).

يعتبر "بلوس" Blos (1967) بأنّ العلاقات بين المراهقين والآباء تسيطر عليها ما يسميه بِـ "المرحلة الثانية لانفصال الفرد جسميا وانفعاليا" (المرحلة الأولى انفصال الطفل في علاقته مع الأم)، وهذا ما يمكّن من تشكيل الذات وبلورتها. إلاّ أنّه يوجد من يعتبر هذه المرحلة دون انفصال ودون فشل في علاقة المراهق مع والديه (Steinberg, 1990). فالمشاكل الحقيقية بين المراهق ووالديه قليلة، وإن وجدت تسبب في خروج وهروب المراهق من البيت نهائيا. أوقد تسبب في مشاكل أخرى مثل المخدّرات والاضطرابات العقلية... وثمّة العكس، العائلة منظار المراهق للحياة. وبالتالي من واجب الأبوين تزويد الأبناء بنظرة واقعية عن الحياة. مثل أساسيات التعامل مع خارج العائلة. لأنّ المعلومات المحصّلة عن الذات من جنس طبيعة المعاملة مع الآخرين ومدى اتفاقها أو اختلافها مع القيم والمعايير الاجتماعية. لاسيما المعاملة الإيجابية مع المراهق تشعره بتقبّل الذات وكذلك بالثقة والتشجيع، ولن يتأتى هذا إلاّ في حالة عدم المبالغة في التعامل بقسوة مع أخطائه وتقبّله دون شرط والتماسه الحب والأمن، من شأن ذلك يخفِّض تعرّضه إلى الضغوط الداخلية والخارجية. أو بالأحرى، تقليل التعرّض إلى الاضطرابات.[15]

4. صعوبة تشخيص المراهق: من الصعوبة بمكان تشخيص المراهق بسبب الأزمة أو الأزمات التي يعيشها. حسب "بايلي-سالينبال" Bailly-Salinpal (1972)، من الصعوبة بمكان الفصل بين أزمة مراهقة بسيطة والذُّهان خلال النمو. ولو أنّ "فاينر" Weiner (1980) يؤكّد بأنّ الذهان ضئيل لدى فئة المراهقين.

و تطرّق "بارون" Baron (1993) إلى الاكتئاب وصوره المقنَّعة (جنوح، اضطرابات السلوك..) لدى المراهق، وقابليته للإصابة به. لكنّنا نجد في الدليل التشخيصي الثالث والرابع للأمراض النفسية والعقلية (DSMIII، DSMIV) جداول إكلينيكية للاكتئاب لكلّ الفئات العمرية (الطفولة، المراهقة والرشد).

على الرغم من اختلاف وجهات النظر لدى الدارسين حول مختلف المواضيع، لاسيما موضوع المراهقة، إلاّ أنّه توجد نقاط حسّاسة أخرى، التحكم فيها وفي هذه المرحلة بالذات يعّد أمرا صعبا. مثل التشخيص، والصراعات في العلاقات الوالدية، ومسألة النضج... ومن جملة ما سبق، يمكن إعادة أشكلة مرحلة المراهقة : هل يمكن اعتبار المراهقة، حقيقة، مرحلة اضطراب ؟

رابعا: اضطرابات ردود الفعل لدى المراهق

نقصد بها اضطرابات التنشئة لدى المراهق، ويمكن الإشارة إلى :

1. تفعيل سلبي (التهميش، الانحراف،..): عبارة عن وظيفة دفاعية ضّد التوترات النفسية الداخلية. تضعف القدرة على الترميز اللاشعوري الموجود بين الفرد والمواضيع الاستثمارية. ومن ثّم يصبح المرور إلى الفعل نتيجة فشل عمل هذا التنظيم.[16] حسب "راؤول" Raoult :

"**[هذا] المرور هو محاولة تكوين استجابة بواسطة إعادة تفعيل السلوك. إنّه حل ممكن للأنا**".

بالنسبة إلى "لادام" Ladame (1981) : **بمجرّد ضعف الأنا [تصبح نرجسيته ضعيفة]، حينها**

يحاول المراهق المبادرة إلى استخدام وسائل أخرى لتعويض [هذه] النرجسية."

يشير كلّ من "إركسون" و "كاستنبرغ" إلى أهمية الدّعم في جلب الاستقرار : "**[... قد يواجه المراهق] انكسارات حقيقية خصوصا إن لم يجد دعما حقيقيا". لأنّه لا يمكنه الاعتماد فقط على طفولة مرحة وسعيدة لتغطية فراغات المراهقة، فلا بد له من الاستقرار [الانفعالي]**". [17]

بالنسبة لـ "جامي"، نمطية العنف لها علاقة بمعاناة المراهق النفسية : "**[...] تكرار سلوك المرور إلى الفعل دلالة على المعاناة النفسية**".

يتوافق إذن المرور إلى الفعل مع التفريغ الانفعالي للتوتر. هذه التفريغات تعطّل التفكير، والتناسق الدّلالي، وإصدار الكلام التعبيري. فالمرور إلى الفعل قد يدّل على هشاشة الجهاز النفسي. فضلا عن كبح نمو النضج وتثبيط سياق الهوية.

2. تهديد الهوية: لقد تطرّق العديد من الباحثين إلى موضوع الهوية وكيفية مواجهة تدهورها. بالنسبة لـ "لوفر": "[يرتبط] تهديد الهوية بالمعاش السلبي." و يصف "لورو" Lauru، المرور إلى الفعل بِـ : "محاولة لإعادة تجسيد الجسم لدى المراهق". و يركّز "جوتون" وجامي" على النقص وضعف الأنا الأعلى. بحيث يعتبر "جامي" شروط المرور إلى الفعل، محاولة لتهيئة مواجهة تهديد الهوية. بمعنى، إمكانية تحويل المعاش السلبي إلى سلوك إيجابي وفعّال.

أمّا "جوتون" يتمثّل تهديد الهوية في صعوبة ربط الجسم بالأنا الشخصي التي تذكّر بالعالم الخارجي وتحدّد داخل وخارج البناء النفسي للشخص، وتساهم في الحفاظ على الهوية. فالفعل يعوّض كل من التفكير والعمل النفسي. أمّا ظاهرة البلوغ تأزّم من وضعية المراهق. وفي هذا الصدد يرى "كاستنبرغ" بأنّ تهديد الهوية متعلّق بالاستثمارات الموضوعية.

ما نستخلصه، أنّ الفعل هو أحد الوسائل التي استثمرها المراهق لإقامة مسافة مع عناصر العالم الخارجي، ولضبط المواضيع الخارجية، وعزل كل تبعية ممكنة. مثل التهرّب من الحكم الأسري. إنّه التفعيل الذي يقي من الخطر المحرّم ويحمي ضّد الانهيار الداخلي. وبالمقابل، عدم التحكم في الموضوع من شأنه يخفّض التحكّم في الذات.[18]

3. الضعف النرجسي: إشكالية المراهق؛ التناقض. إنّه يبحث حضور الآخر وفي نفس الوقت يرفض هذا الحضور. يتوّلد عن مواجهة هذا التناقض العنف والمرور إلى الفعل. لأنّ تهديد الاستقلالية توّلد وضعية هجومية ضّد النرجسية. أي في حالة الضعف النرجسي يمكن ملاحظة نكوصا نرجسيا. في هذا الإطار يؤكّد "جامي"، أنّه بسبب هذه الوضعية الهشّة تتداخل الصور المحيطة مع الصور الخارجية وتوّلد حينها التنبيه النزوي : "**عندما يخضع الأنا إلى تنبيه عال، يقود هذا التنبيه الفرد إلى تشويش وعدم تنظيم داخلي وإلى تهديد شديد للهوية.**"

إنّ الفراغ النرجسي قد يسقط المراهق في "اكتئاب دون موضوع". يمكن القول بأنّ ردود الفعل لدى المراهقين عبارة عن استجابة إلى تهديد الهوية عندما يكون هناك هشاشة نرجسية، وتكون الأنا ضعيفة في مواجهة المظاهر السلوكية للمراهق.(Dolto, s.d, cité par Cannard, 2010) [19]

4. الشعور بالذنب: قد يظهر الشعور بالذنب بشّدة في فترة المراهقة، ويتقاسم هذا المفهوم كل من "فرويد"، و"وينيكوت" و"روسيلون" Roussillon و"باليي" Ballier وغيرهم. بالنسبة إليهم توجد علاقة بين كلّ من الشعور بالذنب والمرور إلى الفعل والجرح النرجسي. من شأن هذه العلاقة أن تؤثّر سلبا على الوقاية من التنبيهات المسبّبة في تهميش بعض استثمارات تقييم الذات، وإضعاف الشعور بالذنب وخلق الكره تجاه الموضوع. و زيادة هذا الكره قد توّلد انشطار الموضوع و ضعف التوتر.

5. الحياة النزوية: يكون المرور إلى الفعل نتيجة النزوات غير المحّققة في مرحلة البلوغ. يرى "جوتون" عمل المراهق متوافقا مع سياق البلوغ واندماج الهوامات النضجية في الحياة النفسية. ويذكر "سافينو" Savinaud دور ميكانيزم الانشطار في فقدان المعنى وكذلك خفض التوتر والصّراع الداخلي الناتج عن الهشاشة النرجسية والنزوية، والمرتبط أيضا بطبيعة العلاقة فرد/موضوع.[20]

6. العلاقة مع الموضوع: يعطي كل من "روسيلون"، و"بونتاليس" Pontalis و"وينيكوت"، و"فرويد"، و"لابلانش" Laplanche ، و"ترودو"Trudeau ، و"مارتي" Marty، و"جامي"،... أهمية كبيرة إلى العلاقات مع الموضوع وإلى القدرة على الترميز وتمثّل الذات. لأنّه من خلال هذه العلاقات تنتج التّقمصات وتتكوّن هوية الفرد. بينما ينتج العنف عن الانشطار الذي يميل إلى تجنّب الموضوع من خلال إنكار بعض جوانب الواقع، والذي يمكنّه من البقاء على علاقة مع هذا (الواقع). وبالتالي يصبح الانشطار وفاقا لأجل استمرار العلاقة مع الموضوع.[21]

7. سياقات الهوية والتقمّص : تُعرّف الهوية من خلال قدرة الفرد على تحّمل تجربة الفقدان(Decourt, 1999). الشيء الذي يهدّد الشعور بالهوية ويولّد تناقضاتها، والتحوّلات الهمجية للاستثمارات الموضوعية والنرجسية الليبيدية. ويتمثّل تناقض الهوية من جهة، في وجود نواة تضمن الشبَه (*Sameness*)، والاختلاف الذي يضمن التفرّد (*Individuation*) من جهة أخرى. وما يحقق الشعور بالدوام هي الآثار الذاكرية. استثمار هذه الأخيرة يعّد بمثابة الوظيفة التنظيمية المزدوجة (أصلها نظرة الأم وصورة المرآة) التي تشكّل أصل تمثّل الذات. أمّا التفرّد تقحمه الهوية أيضا، ويظهر مع الإنكار والعنف. حيث يدفع الإنكار بالفرد إلى الرمزية مع الآخر. هذه الفترة الفاصلة تعيد الموضوع المفقود من خارج نفسية الفرد إلى داخلها، لكي يستعيد ذاكرته حول ذاته.

يمكن القول بأنّ الهوية تنتج من خلال تداخل العوامل النفسية الداخلية والخارجية للفرد. فإن كان ظهورها من خلال القدرة على تحّمل الفقدان، فإنّ ظهور تناقضاتها واضطراباتها يحدث بسبب الازدواجية بين النواة التي تضمن الشبه والأخرى التي تضمن الاختلاف (التفرّد).[22] وهنا نتكلّم عن أزمة المراهقة التي توافق جهدا كبيرا بسبب الحاجة إلى التهديم وإعادة البناء. إنّها حركة فصل وعزل كل شيء لإيجاد أشكالا أكثر فعالية وأكثر توافقا مع نمو المراهق. وبالتالي، يمكن أن تعاش أزمة المراهقة إمّا كاستمرارية بالنسبة للطفولة أو كانكسار وفشل في النمو. بالنسبة لِ إركسون[23]: "**ينفعل المراهق حسب طفولته، وحسب مختلف عناصر الهوية التي تشكلّت لديه.**" أو كما يؤكّد "«كاستمبرغ»: "**الهوية والتقمص مرتبطان**". ربّما يفترض بأنّ الهوية تندمج شيئا فشيئا

من خلال التقّمصات لتصبح حركية.[24] أعتقد أنّ وجود الهوية يفرض كنتيجة للتقمصات الشعورية و غير الشعورية بدءا من الطفولة وعبورا بالمراهقة حتّى الرّشد. للتأكيد، تسمح سياقات الهوية في مرحلة المراهقة بالبحث عن تقمّصات وعلاقات جديدة بسبب بداية النضج على المستوى النفسي والجسمي. وأي نكوص أو تثبيت نمطيين (*stereotypics*) من شأنه يحدث أزمة.

خلاصة

تتميّز المراهقة كمرحلة أزمة بتداخل الهوية. أي بالعجز في الالتزام رسميا مع الآخرين من خلال اختيار التقمص السلبي وعدم استثمار الوقت، والتزام البحث عن الهوية يولّد القلق. أو بالأحرى، قد تؤدي أزمة الهوية إلى هوية متغيّرة، أمّا في الهوية المشكلّة يكون الفرد قادرا على تحديد حدوده وفي ذات الوقت الالتزام مع الآخرين.

نعتقد بأنّ أغلب المراهقين (ولو أنّ "أوفر" (1975) Offer حدّد نسبة 20٪ منهم) تمسّهم أزمة المراهقة، إلاّ أنّ هؤلاء سبق وأن كانت لديهم اضطرابات علائقية مع الآباء ومع الأقران. ربّما هي من بين أهم أسباب اضطرابات المراهقة المحفّزة والمثبّطة في هذه المرحلة. ومن خلال دراسة الجوانب النفسية الباطنية والخارجية للمراهق(ة)، نعتقد أنّها متنوّعة لفهم هذه المرحلة الحرجة وأبعادها.

على العموم، يتفّق جلّ الباحثون على أنّ أزمة المراهقة تميّز نفسية، ومجتمع، وفيزيولوجية الفرد مقارنة بغيرها من مراحل النمو الأخرى. ولعلّ فهم أهم اضطرابات المراهقة يجعل فهم ذات المراهق اليوم وإعداده للحياة المستقبلية. و نعتقد بأنّ التدقيق فيها بصفة موضوعية لن يتّم إلاّ بإعطاء الاعتبار للوسط الذي ينتمي إليه المراهق.

الهوامش

[1] SELTENSPERGER, C. MILLE, & J.-M. GUILE (2012). Un cas de dépression masquée chez un adolescent. *Neuropsychiatrie de l'enfance et de l'adolescence* (Vol. 60, pp. 108-113).

[2] CANNARD, C. (2010). *Le développement de l'adolescent. L'adolescent à la recherche de son identité.* Bruxelles : De Boeck

[3] HARPER, J., & MARSHALL, E. (1991). Adolescents' Problems and their relationship to Self-esteem. *Adolescence , 26* (104), 799-808.

[4] SELTENSPERGER & AL. (2012). Idem

[5] LAUFER, M.; LAUFER, M. E. (1989). Adolescence et rupture du développement; Une perspective psychanalytique. In MAÏDI. (2012). *Clinique du narcissisme* . Paris : Puf

[6] MAÏDI, H. (2012). *Clinique du narcissisme.* Paris: Armand Colin.

[7] MAÏDI, H. (2008). *Les souffrances de l'adolescence - Trauma et figurations du traumatisme*. Besançon: Université de Franche-Comté.

[8] MARCELLI, D., & BRACONNIER, A. (1995). *Adolescence et psychopathologie.* Paris : Masson.

[9] الشيخ دعد. **المراهق يبحث عن ذاته.** مجلّة العربي، العدد 561 - 8/2005 . الكويت

[10] GUTTON, P. (1991). *Le pubertaire.* Paris: Puf.

[11] IBIDEM. P.7

[12] ERIKSON, E H. (1968). *Adolescence et crise. La quête de l'identité.* (J. Nass, & C. Louis-Combet, Trads.) Paris: Flammarion.

[13] KESTEMBERG, E. (1962). Attaque de soi à l'adolescence, désir et refus de séparation ? (N. Kernier, & al., Éds. 2008) *Cahiers de psychologie clinique , 2* (31), 25-59.

[14] CLAES, M. (1995). Le développement à l'adolescence : Fiction, faits et principaux enjeux. *Revue québecoise de psychologie , 16* (3).

[15] الشيخ دعد. المرجع السابق

[16] KERNIER, N., & al. (2008). Attaque de soi à l'adolescence, désir et refus de séparation ? *Cahiers de psychologie clinique , 2* (31), 25-49.

[17] KESTEMBERG, E. (1962). Op. p : 50-51

[18] YAHYAOUI, A. (2005). Ruptures à l'adolescence. *Leçons et cours de master de psychologie clinique*. Chambéry: Université de Savoie.

[19] CANNARD, op cit. p :

[20] SAVINAUD, C. (2014, mai 26-28). Actualité de la perversion. Intersubjectivité et perversion. *Colloque international* . Angers, France: Université catholique.

[21] PERRON, R., & PERRON-RORRELI, M. (1994). Dans *Le complexe d'Œdipe* (p. 106). Paris: PUF.

[22] IBIDEM. P : 106-107

[23] ERIKSON E H (1968). Op.

[24] KESTEMBERG, E. (1962). Op. P. 40-43.